

بيئة العراق والشعر السياسي

كانت بيئة العراق طوال فترة غير قصيرة من العصر الأموي تمثل البيئة التي تركزت فيها حركة المعارضة السياسية للحكم الأموي. فمنذ وقت مبكر انحاز علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه إلى العراق، واتخذ من الكوفة حاضرة لخلافته، ومضى يدير منها حربه ضد معاوية، وهي الحرب التي أظهرت في التاريخ الإسلامي حزب الشيعة المناصر له.

وتقوم نظرية الشيعة السياسية على أساس أن الخلافة يجب أن تُرد إلى آل البيت النبوي الذين يمثلهم علي وبنوه، فهم ورثة الخلافة بعد الرسول الكريم. وإلى جانب هذا الحزب ظهر حزب الخوارج على مسرح الحياة السياسية في أعقاب حادثة التحكيم، حين رفضت طائفة من أتباع علي مبدأ التحكيم، وخالفوه لقبوله له، وانشقوا عنه، ووقفوا في وجهه يعارضونه ويحاربونه كما يعارضون الأمويين ويحاربونهم، وانحازوا إلى «حروراء» بالعراق ليتجمعوا فيها ومن هنا كانوا يُسمون أحياناً «الحرورية» كما كانوا يُسمون «الشراة» أي الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله.

وأساس نظريتهم السياسية أن الخلافة ليست وفقاً على آل البيت وحدهم، ولا على جماعة معينة من العرب، ولكنها حق للمسلمين جميعاً الذين يجب ان يُرد إليهم أمرها ليختاروا من بينهم عن طريق الشورى، فكل فرد من المسلمين له الحق فيها لا فرق بين عربي وأعجمي ومن هنا كانت الخلافة عندهم انتخابية وليست وراثية، ولذلك كان الأمويون في نظرهم مغتصبين لها، لأنهم تحوّلوا بها إلى ملك وراثي، كما كان الشيعة على غير حق حين طالبوا بوقفها على آل البيت وحدهم.

وقد ظل الخوارج هادئين فترة غير قصيرة بعد أن استقام الأمر لبني أمية، ولم يلبثوا أن انقسموا على أنفسهم إلى أربع فرق مشهورة: الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، والنجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفي، والصّفرية أتباع عبد الله بن الصّفّار، والإباضية أتباع عبد الله بن إباض. وظلوا يحاربون الأمويين حتى أواخر أيام دولتهم، وأظهروا في قتالهم شجاعة فائقة.

وفي مستهل خلافة يزيد بن معاوية ظهر حزب ثالث وهو حزب الزبيريين

أنصار عبد الله بن الزبير، وكان هو وكثير من أبناء الصحابة الأولين فقد امتعضوا حين رأوا معاوية يأخذ بنظام الحكم الوراثي وأنكروا عليه أن عهد إلى ابنه يزيد بالخلافة من بعده، ولما أنفذ معاوية هذه الفكرة غضب الحسين بن علي، وغضب عبد الله بن الزبير، وامتنع عن البيعة ليزيد، ودعت الكوفة الحسين إلى مبايعته غير أنها قعدت عنه، فقتل بكربلاء، أما عبد الله بن الزبير فإنه اعتصم بالكعبة، وتطورت الظروف سريعاً فتوفي يزيد بن معاوية، وبايعت الحجاز ابن الزبير، وأساس النظرية السياسية لهذا الحزب أن الخلافة من حق قريش وحدها، فمنها كان النبي الكريم ومنها كان خلفاؤه، والأمر فيها شورى بين المسلمين يختارون من قريش من يرونه مناسباً لها ويجب أن تُرد إلى الحجاز موطن النبي وصحابته.

ومعنى هذا أن حركات المعارضة السياسية للحكم الأموي انحازت منذ وقت مبكر إلى العراق، واستقرت فيه، واتخذت منه مركزاً لنشاطها، فكان من الطبيعي أن يظهر الشعر السياسي في هذه البيئة، وأن يزدهر بها، وأن يلمع فيه شعراء يمثلون هذه الأحزاب ويعبرون عن آرائها ومبادئها.

حزب الشيعة

يدور شعر الشيعة حول محاولة إثبات حق آل البيت النبوي في الخلافة التي اغتصبها بنو أمية بغير حق، والاحتجاج لهذا الحق بأن أبناء علي هم أقرب الناس إلى النبي عليه السلام، لأنهم أبناء ابنته فاطمة، فهم ورثته في الخلافة، وأحق الناس بها من بعده، وبسبب إخفاق كل ثورات الشيعة طوال العصر الأموي، وما قدموه من ضحايا، انطوى شعرهم على حزن عميق، وأسى وحسرات لا تهدأ، وترتفع فيه أحياناً أصوات الثأر والانتقام. ويلعب بكاء الحسين دوراً كبيراً في الشعر الشيعي، ويمثل موضوعاً ضخماً من موضوعاته، فقد هزّ مصرع الحسين مشاعر الشيعة في أرجاء العالم الإسلامي هزاً عنيفاً، وأثار في أعماقهم أحاسيس الندم والأسف، ومشاعر الغضب والحقد والرغبة في الانتقام.

وفي شعر كثير من شعراء الشيعة يتردد هذا البكاء الذي لا يكاد ينتهي حتى يبدأ من جديد، على نحو ما نرى في شعر عبيد الله بن الحر الجعفي الشاعر

الفارس، الذي وضع لمن جاء بعده من الشعراء التقاليد الفنية لرياء الحسين، حتى أصبح رياء الحسين موضوعاً أساسياً من موضوعات الشعر الشيعي. فقد كان ابن الحر أحد الذين دعاهم الحسين إلى الخروج معه، ولكنه اعتذر إليه متعللاً بقلّة من ينصره من أهل الكوفة وكثرة من خرج منهم لقتاله. فلما انقشع غبار القتال، وتكشف عن الحسين وأصحابه صرعى على أرض كربلاء الحزينة، كان ابن الحرّ أحد الذين هزتهم المأساة، وأثارت في نفوسهم الحسرة والندم، يظهر ذلك في قوله:

فيا لكِ حسرةً ما دمتُ حياً تَرَدَّدُ بين حلقي والتراقي

حسينٌ حين يطلبُ بذل نصري على أهل العداوة والشقاق

فما أنسى غداة يقولُ حزناً: أتركني وتُرمعُ لانطلاق؟

فلو فَلَقَ التَّلهُفُ قلبَ حيٍّ لَهَمَّ القلبُ مني بانفلاقٍ

ولم يكفّ ابن الحر عن بكاء الحسين طيلة حياته، وهو في هذا البكاء ظل يتوعد الأمويين ويهددهم بالانتقام والثورة على حكمهم الظالم، من مثل قوله مخاطباً عبيد الله بن زياد أمير الأمويين على العراق الذي وقعت مأساة كربلاء في أيامه:

سقى الله أرواحَ الذين تأزّروا على نصره سُقياً من الغيث دائمه

وقفْتُ على أحداثهم ومَحالهم فكاد الحشى يَنْفُضُ والعين ساجمه

أُقتلهم ظلماً وترجو ودادنا؟ فدع حَظَّةً ليست لنا بملائمه

لعمري لقد راغمتونا بقتلهم فكم ناقم منا عليكم وناقمه

أهْمُ مراراً أن أسيرَ بجحفل إلى فئة زافت عن الحق ظالمه

على هذا النحو كان الشعر الشيعي في العصر الأموي دفاعاً عن نظريتهم السياسية واحتجاجاً لها وتقريراً لمبادئها، وبكاء لشهداءهم، وتحريضاً على خصومهم، ثم مدحاً لآل البيت النبوي وتمجيذاً لهم، وهجاء لبني أمية وتشهيراً بهم وتهديداً لهم.